الصمتُ "معطى تداوليًّا ونسقاً خفيًّا في الخطاب"

أ. يوسف رحايمي، تونس

الملخّص:

نسعى من خلال ورقتنا هذه إلى الوقوف عند ظاهرة الصمت وتبيّن دلالاتها في العمليّة التّواصليّة، ويأتي سعينا في إطار ما تشهده الدّراسة اللّغويّة في أنحاء كثيرة من اهتمام بقضايا الخطاب والتّواصل ولا سيما في وجهها التّداوليّ، ونركّز عملنا في هذا المقال على قضايا الصمت باعتباره نسقاً خفيًّا في الخطاب يُساهم في دفْع حركته ويوجّه الدّلالة بحسب سياق الحال، ولا تقتصر هذه الورقة على دلالات الصمت بما هو بلاغة تفوق بلاغة الكلام - وهذا ما عاينه الكثير- وإنّما غايتنا تعقّب دلالات الصمت بلاغةً كان أو عيًّا، إرادةً كان أو قهراً...إنّنا أمام الصمت بما هو ذات الإنسان ورغباتها عندما تغيب لغة الكلام.

مدخل:

لسنا مُتيقنين أنّنا سنفلح في الكتابة عن الصمت وفكّ رموزه وأسسه القائم عليها ونحن في حَضرة الخطاب الأخرس، فإمّا أن نصوغ خطابنا على غير مقتضى الظّاهر بأن نُوهم القارئ أنّنا نتحدث عن الصمت ونُشبع البياض حبراً وكلاماً، وإمّا أن نكتفي بما يُفيد ونسقط في حدود الوصف الظّاهر، وهذا ما لا تقتضيه الكتابة العلميّة -على الأقل- فيما نصوغه من مقالات، وعليه فإنّنا أمام الخيار الأوّل بأن نكتب قدْر المستطاع ونُحدث ضجّة باللّغة حول موضوع محوره الصمت.

ولئن كان الكلام في الخطاب مِلْك المتكلم أساساً فإنّ الصمت يظهرُ لنا لصيقاً أكثر بالمخاطَب، فهو دائما على الطرف النقيض من صاحب القول حتى وإنْ كان هذا الطرف المتكلم نفسهُ، فالصمت في اللّغة ذلك "الغائب الحاضر". والمتكلم حين يصمت فذلك لأنّ هناك حديث آخر بينه وبين نفسه لم يُقلْ، ولكنه موجود، حديث لا نراه ولكنّنا نتحسسه، فالصمتُ حديث غير مسموع.

وللصمت أبعاد ودلالات في الخطاب تحضر حين يعجز اللّسان عن التّعبير، فهو بديل الكاتب أو الشاعر أو السارد أو الواصف حين تتعطّل لغة الكلام، وهو عنوان البلاغة حين يكثرُ اللّغو، وهو سبيل الإقناع حين تفشل مستويات اللّغة عن التّأسيس. ومن هنا غدا الصمت عنصراً فاعلاً ومعطىً ونسقاً حاضراً في كل خطاب، وعليه تأتي ورقتنا هذه لتقف عند حقيقة الصمت باعتباره معطى تداوليًّا ونسقاً خفيًّا في الخطاب.

ولسنا بهذا المقال نثيرُ قضايا الصمت جميعها فهو يحتاج إلى أكثر من ورقات محدودة وإنّما نثير قضايا الصمت لحظة الخطاب، أي عند التّواصل، بحيث نقف عند أدواره في توجيه الخطاب واعتباره عنصراً مؤسساً للتواصل لما فيه من إشارات دالة تدخل في نسق الاستدلال على المعنى بالصمت وإنْ كنّا لا نراه، وبهذا فإنّنا نعالج الصمت في العمليّة التّواصليّة وبعيداً عمّا يمكن أن يلتصق بالصمت من قضايا تهمّ التّراكيب والجمل من قبيل الحذف في اللّغة أو البياض في القصائد والشعر.

والصمت إذْ نقفُ عنده اليوم بالمعاينة بما نمتلك من أدوات تحليل الخطاب تسعفنا في ذلك ليس بقضية لسانية جديدة، وإنّما له جذوره في المدونة اللّغويّة العربيّة وتحديداً عند الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين"، ولهذا فإنّنا نؤسّس لتثاقف بين أدوات بحث جديدة (تحليل الخطاب) ننفذ بها إلى وعي قديم بقضايا الصمت البلاغية. فما هو الصمت؟ وكيف يدخل في تأثيث الخطاب؟ هل الصمت ضعفٌ وركونٌ أمام سطوة

الكلام أم أنّه بلاغة صامتة؟ هل الصمت مستوى من مستويات نظام اللّغة أم أنّه معطى تداولي متروك للمقام وما يحفّ به من ملابسات؟ وإذا كان ذلك هل نسلّم بكون الصمت نسقاً خفيًّا في الخطاب يوجّه دلالاته ويتحكّم فيه أحيانا؟

- في ماهية الصّمت.

الصمت لغة من صَمَتَ يصْمتُ صمتا...أي طال السكوت، ويقال أصْمَتَ العليلُ ، فهو مُصْمِتُ، إذ اعْتَقَلَ لسانه، وفي الحديث: أصمتت أمامه بنتُ العاص أي اعتقل لسانها. وفي الحديث: أنّ امرأة من أحْمَسَ حجتْ مُصْمتة أي ساكتة لا تتكلّم...ومن أمثالهم: إنّك لا تشكو إلى مُصمت أي لا تشكو إلى من يعبأ بشكواك وجارية صموت الخلخالين إذ كانت غليظة الساقين، لا يسمع لخلخالها صوت لغموضه في رجليها.[1]

يظهر من خلال هذا التعريف أنّ الصمت عزوفٌ عن الكلام ورغبة جامحة في السكوت، غير أنّه سكوت مكتنز بالمعنى قد يصل في بعض الأنحاء إلى قدرة تفوق لغو الكلام وثورته الهوجاء التي لا طائل من ورائها، ولنا في الأمثال الشعبيّة خير دليل على ذلك، فيقال "الممتلئ لا يُحدث صوتاً"[2] ، وبالتّالي فإنّ حديثنا عن الصمت ليس بما هو عجز عن أداء المقصود بقدر ما هو طريق من طرق القول يتوخاه المتخاطبون من أجل بناء صَرْح خطابيّ مُكتمل الأطراف. ولكن لا يمنع هذا من أن نغوص في تفاصيله ونقف على ضروبه المتعدّدة ما دمنا في حضرة "ماهية الصمت".

في البدء لابدّ أن نشير أنّ الصمت في اللّغة والاصطلاح كما جاء في لسان العرب هو ضدّ الكلام، وهو رغبة في السكوت. غير أنّ هذا التعريف لا يُسعفنا في استجلاء ماهية الصمت، ولا يقف عند كنْهه، فنحن لا نعلمُ من الصّامت إلاّ صمته، ولسنا على يقين أنّه صمتُ بلاغة أم عجز وعيّ. ولسنا متأكّدين أنّه يسكتُ عن طيب خاطر وعلامة عن الرضاء أم أنّه مُكره على ذلك أمام سطوة الكلام وقهره.

إذا كان ذلك كذلك، فالصمتُ ظاهرة زئبقية متلوّنة لا تكاد تعثر عن خيط ناظم ينسجها، فهو بلاغة وبراعة من ناحية وضعف وعجْز من ناحية أخرى، هو الرضاء والتعقّل والحكمة تارة وهو الركون والانصياع والتّسليم تارة أخرى، يقول عبد الله البهلول متحدّثا عن الصمت: «منه يكون ما يكون ذا طاقة إبلاغيّة وبلاغية تفوق الطاقة الكامنة في الكلام. ويكون حينا موقفا يُكره عليه المتكلّم ويُضطر إليه»[3]

والنّاظر في الصمت في صورته العامة يراه يتخلّل قضايا الخطاب من ناحية وقضايا اللّغة من ناحية ثانية، حيث نرى النّحاة والبلاغيين العرب يُدرجون الحديث عنه في سياق الحديث عن الحذف الذي يُصيب التراكيب، وما في الحذف من براعة وقدرة وشجاعة[4] ، وهذا ما يتجلى عند صاحب الخصائص تحديداً. وقد يتقاطع الصمتُ في اللّغة مع الإيجاز الذي عُدّ طريقاً من طُرق القول البليغ[5]، وكأنّنا بالصمت هنا يجد له حضوراً في اللّغة ضمن تراكيب الجمل على صُور الحذف والإيجاز، وبالتّالي فنحن نشهد فيه نزوعاً إلى تقليل اللّفظ وصولاً إلى لحظة الغياب (اللفظ) عند الخطاب، وهذا ما يجعلنا نهتم به في التّواصل بعد أن رأينا أنّ صوره في اللّغة حاضرة -نوعا ما- وإنْ لم تكنْ صراحة. والصمتُ يمكن أن نلمحه أيضا بين

السطور والفقرات ضمن الخطاب المكتوب، فيكون انعكاساً دلاليًّا لحدث ذهني يُريد الشاعر أو الكاتب أن يقول لنا شيئا، فذلك البياض ليس اعتباطاً وليس أمراً كما جاء واتفق وإنّما هو شحنة دلاليّة صامتة تخفي خطاباً دفيناً، و بموجب ذلك يتحول الصمت إلى خطاب بليغ «يعزّز بلاغة المحو التي تناقض بلاغة الامتلاء في القصيدة التقليدية»[6]

ونصوغ هذا الشكل التالي الذي يصوّر موقع الصمت في بلاغة الكلام وبيانه: الكلام (نظم الكلام وصياغة الألفاظ أحسن صياغة)

الحذف والإيجاز والتقليل في اللفظ مع إشباع المعنى ، البيان

تماس الصمت مع الحذف

الصمت وغياب اللّفظ وبقاء المعنى

قراءة تداولية(أغراض ومقاصد)

(لحظة الخطاب)

ضمن هذا الشكل يظهرُ لنا الصمت في أسفل مراتب اللّفظ (أي غيابه في اللّغة) ولكننا قصدنا منه أنّه موجود ضمن بيان الكلام ومقاصده، فالصمتُ ولئن خرج من حدود اللغة فإنه يبقى موجوداً لحظة الخطاب ليحقّق أغراضاً ومقاصد عدّة بحسب السياق. ويطلعنا الشكل على تماس الصمت مع مظاهر الحذف والإيجاز في اللّغة.

2- الوعي البلاغي العربي بقضايا الصمت.

حقيق على الباحث وهو يُقبل على تفكيك ظاهرة معيّنة أن يجد لها المنطلقات التي صِيغت وفقها حتى يتسنى له تأصيلها وطرحها بما يوافق شروط العمل الأكاديميّ، وضمن هذا سعيْنا إلى تأصيل ظاهرة الصمت في الوعي العربيّ القديم حيث فتشنا عن قضاياها في كتب البلاغيين القدماء وتوقفنا عند أبعادها و وظائفها الدّلالية بما يسمحُ لنا بالقول إنّ الصمت مترسخ في الوعي العربي وله حضور قوي ضمن تصانيفهم.

غير أنّ التطرق للصمت عند النّحويين والبلاغيين العرب ليس بالمهمة السهلة، فقد لا نظفر بمدوّنة تطرق أبواب الصمت بصورة مباشرة، وإنّما نجد هذه الظاهرة تحت مُسميات أخرى وضمن أبواب أكبر مثل باب الحذف والإيجاز في القول. غير أنّ هذا لم يمْنع من تفحّص الدّرسين النحوي والبلاغي لنقتنص إشارات الحديث عن الصمت تصريحا كان أو تلميحاً. فخذ على سبيل الذكر كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ فصاحبه كان من المولعين بقضايا البيان والعجز عنه وكلّ ما يمكن أن يساهم في بناء الخطاب حتى خِلْنا الجاحظ "تداوليا قبل التداولية" مع مراعاة فارق الزمن ومنطلقات الطّرح، وأُعرج تحديداً إلى "باب الصمت " وسترى أنّ الجاحظ على وعي تام بقضايا هذه الظّاهرة.

يبدأ شيخ البيان في عرض أقوال حول الصمت تدور أغلبها حول قضية واحدة مفادها : أنّ الصمت أفضل من الكلام درءا للفتنة، وما قد يستتبع الثرثرة من مغبّات الزلل، فانظر مثلاً لهذا القول الذي أوردهُ الجاحظ في كتابه: "مقتلُ الرجل بين لحْييْه وفكّيْه" وتمعنْ أيضا هذا القول " ليس شيء أحقّ بطول سجْن من اللسان"[7]، والناظر في هذين المثالين يلاحظ نُزوع صاحب البيان إلى تفضيل الصمت عن الكلام، وتصادفنا في هذا أقوال وآثار عدّة ولا سيما ما تلتقطه آذاننا في الواقع اليوميّ من أمثال شعبية من قبيل: "إذا كان الكلام من فضّة، فالسكوت من ذهب"، الذي أورده الجاحظ أيضا ضمن

كتابه البيان والتبيين. غير أنّ الجاحظ يسوق كل ذلك في سياق معين يتصل -كما قلنا- بأبعاد الصمت الإيجابية التي تقي الإنسان من شرّ الوقوع في الزلل، ولا يعكسُ أبداً ضعفاً من المتكلم وعجزه. وفي هذا الأخير أشار الجاحظ أيضا أن الصمت قد يكون من باب العيّ والعجز وضعف البيان والبلاغة في الكلام، وقد أورد في ذلك حججا من الشعر والنثر والحِكم، فانظرْ على سبيل الذكر لا الحصر قول بشار الذي ساقه في البيان والتبيين:

وعيُّ الفعَالِ كعيّ المقال*** وفي الصمت عيّ كعي الكَلِمْ[8]

وجاء حديثُ الجاحظ عن الصمت في سياق تعريفه للبلاغة، فقد أورد حديثاً مفاده أنّه: قيل لعمر بن عُبيد: «ما البلاغة؟ قال: ما بلغ بك الجنّة، وعدل بك عن النار، وما بصرك مواقع رشدك وعواقب غيّك. قال السائل: ليس هذا أريد. قال : من لم يحسن أن يسكت لم يحسن أن يستمع ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول. قال: قال النبي صلى الله عليه وسلّم: "إنّا معشر الأنبياء بكاء" أي قليلو الكلام»[9]، وقد كان للصمت حضورٌ في النص القرآني وجاء متنوعا بتنوع السياق الذي ورد فيه، فهو أحيانا يظهر لنا - وفي مواقف تداولية - مُعبّرا عن العجز أمام ضجّة الكلام، وأحيانا أخرى يظهر لنا نوعاً من أنواع العيّ وعدم القدرة على الكلام (البليغ)، ويمثّل أحيانا إشكالاً من بين إشكالات التّواصل، فانظر مثلا لقول موسى يطلب ربه ﴿احْلُلْ عُقْدَةً منْ لِسَاني يَفْقهُوا قَوْلي﴾ (طه، الآية 28)، وبهذا يكون نبي الله طالباً لمنحة الكلام البليغ في مُقابل عدم القدرة على التبليغ، ليتحول بموجبها الصمت نوعاً من أنواع العجز في بعض المواقف وخاصة الدّعوية منها، على اعتبار أن نبي الله في موضع دعوة وإقناع، ونرى الصمت في القرآن أيضا نوعا من أنواع الترميز والإشارة وهذا ما تجلى في سورة مريم ﴿ألا تكُلم النَاسَ ثلاثَ ليالٍ سويًّا﴾(مريم، الآية 10)، وكذلك ﴿إنّي نَذرتُ للرحمن صوماً فلنْ أكلّم اليومَ إنسيّا﴾ (مريم، الآية 26). وفي هذه الآيات إشارة واضحة لسياقات الصمت ضمن النص القرآني، وهذا ما يؤكّد وعي المدونة القديمة بقضايا الصمت وضروبه.

وبناء على هذا، فإنّ الصمت له حضور في الوعيّ البلاغيّ العربيّ القديم، وهو حضورُ يكشف عن عُمق نظر البلاغين العرب في مباشرتهم لقضايا البيان والكلام، والطّريف في كل هذا أنّ تصورهم للصمت يأتي تحت أبعاد تداوليّة، يدرجونه أحيانا في إطار البلاغة الصامتة والتبليغ بالسكوت، وأحيانا أخرى يقفون عند صوره السيئة التي تعكس العجز والعيّ وعدم قدرة المتكلم على نسج الكلام البليغ، وهذا لعمري من صميم البحث التّداوليّ، فالجاحظ يقترحُ في مباشرته لقضايا الصمت أن يكون في مواضعه وليس كما جاء واتفق، ويقصد الجاحظ من ذلك أنّ للصمت مواضع ترفعه إلى مصاف البيان الذي يتجاوز الكلام، وقد يكون في مواضع تعبيرا عن ركون اللّسان وضعفه.

1- الصمت باعتباره نسقاً خفيًّا في الخطاب ومسارات عدّة في الدّلالة.

أشرنا منذ البداية أنّ ورقتنا تقف عند الصمت باعتباره نسقاً موجوداً في الخطاب يدفعُ به ويؤسّس له ضمن أبعاد تداولية بحسب مقاصد المتكلمين. وعلى هذا فإنّ حديثنا عن الصمت هو حديث فيما يؤسّس

له لحظة التّواصل وإن كنا لمحنا بعض صُوره ضمن اللّغة وتراكيب الكلام. والصمتُ في الخطاب لئن كان يُفهم عند البعض ضمن حِذْق في البلاغة وبراعة من المتكلم فإنّ البعض يعدّه ضمن سياق العجز والعيّ، وقد نعثرُ على بعض من الأبعاد التداولية الأخرى للصمت تتجاوز حدود صنعة البلاغة وعيّها، وبهذا فنحن نراه يتخذ مسارات عدّة في الدّلالة بحسب السياق.

يأتي الصمت في العرف اللّغويّ متأخراً عن الكلام، فنراه إجابة حينا وعزوفا حينا آخر ، فالصمتُ في العادة حالة تجتاح الإنسان بعد سماعه شيئا ما أو اصطدامه بشيء ما، ويكون صمته في تلك الحالات انعكاساً لحدث واقع أثّر فيه. ولمّا كان كذلك فإنّ الصمت يعدّ من باب التّواصل أساساً، أي نعثر على وجوهه وأبعاده ضمن الخطاب ونعاين صوره وفق ما تُمليه علينا مكوناته التّداولية، ولهذا نستعين في تفكيك قضاياه بما وفره لنا المنهج التّداوليّ من آليات في تحليل الخطاب ولا سيما أنّ هذا المنهج يعتني «بدراسة استعمال اللغة في الخطاب»[10]. وقد اعتبر عبد الله البهلول أنّ الصمت سياسة في القول باعتباره "اختيارا فنيًّا وموقف فكريًّا يلجأ إليه المتكلم وهو على الكلام قادر"[11]، ونفهم من كلام البهلول أنّ الصمت في هذا السياق ليس بالعجز، - وإنْ كنا نخالف البهلول في هذا التصور وسيأتي توضيح ذلك- ، وإنّما هو بلاغة ضمنية يهدف بها المتكلم تبليغ مقاصده بالإيماء ودون أن يقول شيئا، وهذا لا شكّ ضرب من ضروب البلاغة الفائقة.

نطرح مقاربتنا للصمت باعتباره نسقاً خفيًّا في الخطاب ضمن ما يمكن أن تزخر به هذه الدّلالة الصامتة من معانٍ، ولسنا في هذا السياق نعطي للصمت أدواراً من عندنا وإنّما نحن نسيرُ وفق ما يقترحه علينا لحظة الخطاب، فدلالات الصمت انتهازية في الأصل - إن صحّ التوصيف- ذلك أنّنا لا نعثر عن صمت مبرر في بعض الأحيان وسيأتي تحليل ذلك.

3- أ. فخّ الصمت وانتهازية الدّلالة.

ننطلق في هذا السياق من حوار بين صاحب مؤسّسة خاصة للتدريس ومعلّم جاء يطلب شغلاً وقد تسلّح بأدوات تحليل الخطاب لإقناع مُشغّله، فالمعلّم لا شك -وفي واقع تشهد فيه البطالة ارتفاعاً - عليه أن يشحذ كامل الوسائل في ذلك، في المقابل يستلقي صاحب المؤسسة على كرسيه وقد تسلّح هو أيضا بواقع الحال وتدعمه في كلّ ذلك ظروف المكان والزمان.

في هذا الحوار الشّيق سنرى كيف يلعبُ الصمت دوره السلبي بأن يوجّه كفّة الحوار لصالح المعلّم بما يخدمُ صاحب المؤسّسة، كيف ذلك؟

إنّها الافتراضات أيها القارئ، فصاحب المؤسّسة التّعليمية الخاصة قد اكتسب خبرة من كثرة اللقاءات التي خاضها مع السادة المعلمين، وبهذا فهو يكتسب تجربة الحوار التي تمكّنه من ترويض خصْمه بما يخدمُ مصلحته الخاصة، فلنتأمل معا الحوار الآتي:

-المعلّم: مرحبا، لقد جئت طالبا للشغل في مؤسستكم.

-صاحب المؤسسة: على الرحب والسعة، ولكن كم خبرتك في هذا المجال؟

المعلّم: (.....)[12]، (مع محاولة لإخفاء تعابير وجهه) : سنتان فقط.

- صاحب المؤسسة: (بعد أن استدل من صمت المعلم و تعابير وجهه شيئا ما)، ولكن هذا غير كاف فهناك من هم أكثر منك خبرة وقد رفضتهم.
- المعلّم: (يتدارك الموقف): ولكن أنا على استعداد للعمل براتب أقلّ.
- صاحب المؤسسة: كم تقترح مثلاً؟
- المعلّم: أربعمائة دينار.
- صاحب المؤسسة: (بعد أن أصبحت الكفّة لصالحه) (.....).
- المعلم: (مقاطعاً صمت صاحب المؤسسة) أنا على استعداد أن اشتغل بثلاثمائة وخمسين فقط.
- صاحب المؤسسة: حسنا أنا موافق.

بالعودة إلى هذا الحوار ومحاولة الوقوف على أدوار الصمت في هذا السياق سنجدُ ما نقول في شأن الصمت الذي عبرنا عنه بالترميز التّالي (.....). إنّ متابعة الحوار تكشف لنا عن كيفية استغلال صاحب المؤسسة التّعليمية الخاصة للصمت وجعله سلاحاً في وجه المعلّم الذي لم يستطعْ ترجيح الحوار لكفته. كيف يظهر لنا ذلك؟

يُطلعنا الحوار في البداية عن هُدوء تام بين المتحاورين، فلا شيء يستدعي التوتر فالمعلّم يرحب ويطلب شغلاً وصاحب المؤسّسة يردُّ بما هو متعارف عليه في العادة، ويبدأ تغيّر ملامح الحوار تحديداً مع إجابة المعلم على سؤال صاحب المؤسسة حول مدّة الخبرة، والظّاهر أنّ صمت المعلّم وتغيّر ملامح وجهه هي المطية التي اتخذها صاحب المؤسسة في اختراق نفسيّة المعلّم وتطويع الحوار لصالحه، فالصمت هنا -وكما قال يا كوبسون- "وظيفة انتباهية تتحقق لكن دون علامة لسانية"[13]، و ونزل في هذا السياق فلسفة صاحب المؤسسة وقدرته على قراءة صمت المعلّم وفواصل سكوته لتتحول إلى أداوت في تحليل الخطاب، ويذكرنا هذا بقول لأحلام مستغانمي ضمن روايتها ذاكرة الجسد: "إنّ الابتسامات فواصل ونقاط انقطاع.. وقليل من الناس أولئك الذين مازالوا يتقنون وضع الفواصل والنقط في كلامهم" .

والمتمعّن في الحوار أكثر سيجدُ أنّ صاحب المؤسسة مفاوض فذٌّ نظراً لأنّه تابع استراتيجيته في كسب الحوار لصالحه، وقد عوّل أكثر على الصمت وطوّعه هذه المرّة لصالحه، و لك أن تعثر على ذلك ضمن الحوار، حين قال له المعلّم: "أقبل أن أشتغل بأربعمائة دينار فقط"، فصمت صاحب المؤسّسة في هذه الحال، وضمن هذا السياق هو صمت تداوليّ بامتياز استطاع من خلاله أن يربك حالة المعلّم بعد أنْ تفطّن من عرضه أنّه قابل لكل المهادنات في الحوار، ويعزّز تحليلنا لذلك استدراك المعلم حين قاطع صمت صاحب المؤسسة وقال: "أنا على استعداد أن اشتغل بثلاثمائة وخمسين فقط"، وهذا التحوّل في رأي المعلم دليل على كوْنه سقط في فخّ صمت صاحب المؤسسة، ومن هنا يتحول الصمت باعتباره خطاباً غير لغوي إلى خطاب سيمولوجي يقول جميل حمداوي في هذا الصدد: « وكلّ خطاب لغوي وغير لغوي يتجاوز الدّلالة إلى الإبلاغ و القصدية الوظيفية، يمكننا إدراجه ضمن سيميولوجيا التواصل»[14].

ومن الأكيد أنّ الصمت في هذا السياق قد لعب أدواراً تداولية ووجّه الحوار لمزالق معيّنة، فالصمت نراه ضمن هذه المحاورة الطريفة يتخذُ مواقع بحسب قدرة المحاور، فصمت المعلّم كان محنةً ووبالاً عليه

ممَا جعلَ صاحب المؤسسة يستغله في البداية، وهذا هو الصمت في وجهه السلبيّ، أما صمت صاحب المؤسسة في مرحلة ثانية فهو الصمت الخطابيّ الذي يُتسلح به من أجل خدمة الحوار وتوجيه الدّلالة بما يخدم الغرض، ومن هذا المنطلق يتحول الصمت إلى إشارة تستدعي القارئ إلى أن يوظّف استدلالاته لفهم مقاصد المتكلم، وتشارك في كل ذلك الإيحاءات و تعابير الوجه، فنحن في حضرة سياق تداولي يتواصل فيه المتخاطبون تحت ظلال الترميز.

إنّ ما قام به صاحب المؤسسة إذا ما وضعناه في سياقه التّداولي و الإقناعي بصورة خاصة سنجده مرتكزاً على آليات تحليل الخطاب ولا سيما في إطار ضمنيات القول والاستدلال العقلي، فصاحب المؤسسة واعتماداً على ضمنيات الخطاب[15] بينه وبين المعلّم استدلّ من الصمت وبالصمت على كثير من الأشياء مما جعله يوجّه الحوار لصالحه، فنحن أمام انتهازيّة الدّلالة وتطويع اللّغة للمصلحة والمنفعة بما يخدم صالح فرد عن فرد[16]، فكأنّ الصمت في هذا الحوار لعب دوراً سلبيًّا في توجيه الدلالة، ويذكرنا هذا بفلسفة العقل الباطنيّ وخفايا الصمت، يقول محمد العامري مؤسس فرضية الإقناع السري: « لأنّه في تواصلنا على المستوى اللفظيّ يقوم صمت طرف ما بتحفيز المبادرة لدى الطرف الآخر لملء الفجوة التي أحدثها الصمت، وعادة ما يكون ملء الفجوة ارتجاليا بأقرب متاح لديه، لأنّ التركيز منصبّ في الحفاظ على استمرارية التواصل اللفظي».[17]

3. ب. الصمت بين الادعاء والحقيقة.

نريدُ بالصمت بين الادعاء والحقيقة أن نبحث عن اعتقاد الصّامت من صمته، فكما قلنا منذ البداية نحن لا نعلم هل أنّ الصّامت يصمتُ بلاغةً ورغبة من عنده، فتكون رسالته قد وصلت بما لم يُقل، أم أنّ الصّامت بصمته يخالف اعتقاده بأن يصمت وله رغبة في الكلام والتعبير، فقد يكون عاجزا أو مكرهاً، ولنا في حياتنا العامة الكثير من هذا.

تصادفنا في الواقع اليومي كثير من القضايا التي تتعلّق بالصمت، والتي يمكن أن نستنجد بها في تبيّن مساراته الدّلاليّة، فخذْ على سبيل الذكر لا الحصر صمتُ الأنثى في محافل الزواج، أي حين يتقدّم من يخطبُ يدها، وترى ذلك في المناطق الريفية الأكثر محافظة، فقول الأب مثلاً للمتقدّم للزواج: "زوجتك ابنتي" ولا سيما دون إذنها أوفي حضرة صمتها هو نوع من القهر اللّغويّ الذي يسري فيه فعل العقود هذا إلى واقع الحال، حيث تتحول من خلاله الألفاظ إلى أفعال باعتبار أنّ هذه الأقوال تنشئ العمل باللّغة، وهذا على رأي أوستين Austin مؤسس نظرية أفعال الكلام[18]، وبهذا فقد يكون صمت الأنثى في هذا السياق علامة عن الرضاء، ومن هنا فإنّه يساهم في دفع الخطاب نحو المنحى الإيجابي في كفتها، وقد يكون من ناحية أخرى انعكاساً لحالة من الحزن والرضاء السلبي بعد أن زُج بها في إطار علاقة ليس لها فيها ما تقول، وضمن هذا يتحوّل الصمت من علامة عن الرضاء كما اتفق على ذلك العقل الجمعي في رمزيته الاجتماعية والثقافية le symbolisme social et culturel إلى علامة عن صمت سلبي تدّعي فيه الأنثى أنّها راضية في حين هي صامتة أمام قهر الذكورة، وبهذا

فليس كلّ صامت علامة عن رضاء بالضرورة ، وفي هذا الحقل تقترح علينا الترميزات الاجتماعية والثقافية[19] للصمت مداخل عدّة باعتباره يدخل في إطار ثقافة كاملة ترى الصمت علامة عن الرضاء .

وإذا كان الإنسان قد خُلق ليكون ناطقاً يفكّر باللّغة ويعبرّ ، فإنّ صمته ليس إلاّ حالة مُفتعلة في أغلب الأحيان، وقد تُطلعنا سياقات السياسة عن مثل هذا، فالصمت في أغلبه " شيطان أخرس" وهذا ما تلتقطه آذاننا في الواقع، فهو يُساهم في الجريمة، فخذْ على سبيل المثال ما تعيشه المجتمعات اليوم من صمْت مما يجري حولها من حروب ودمار، أليس الصمت هنا فعلاً لغويًّا سلبيًّا يشجع الظالم على ممارسة فعله؟؟، ويقال في بعض الأمثال "المصيبة ليس في ظلم الأشرار بل في صمت الأخيار".

وليس تفجّر ثورات الربيع العربيّ في وجه حكّامها إلاّ صورة من صور صمت السنين وردّة فعل عمّا وقع، فهذا هو الصمت السلبيّ الذي يحرم الإنسان حقّ التعبير، وكما تقول مستغانمي إنْ كان الإنسان يقضي سنواته الأولى في تعلّم النطق فإنّ الأنظمة العربية تقضي بقية عمره في تعليمه الصمت"، والنّاظر في هذا الصمت تداوليًّا يراه صمتا يراعي سياق الوضع الذي كان فيه نظرا لطبيعة الأنظمة.

وقد يكون الصمت في مواضع حقيقيّة معبّراً عن ترفع القائل عن ضوضاء اللّفظ، فأن تصمت مثلاً أمام شخص يدّعي عليك ويريد إقحامك في حوار بيزنطي فهذا من باب التّعقل، ويقال في بعض الحكم" إذا تمّ العقل نقص الكلام" : وفي هذا إشارة واضحة من كوْن الصمت من باب التعقّل وقدرة الإنسان على إثبات ذاته، وهنا يسقط صَرْح الكلام بما هو انعكاس لضوضاء الصوت أمام شموخ الصمت وفتنته بما هي قدرة ورصانة. وعلى هذا الأساس فإنّ الصمت يأخذ أبعاداً عدّة بحسب السياق الذي يأتي فيه، ومن هنا فهو يساهم في دفع حركة الخطاب إلى ما لانهاية فليس صمتنا في بعض الأحيان إلاّ استئنافا لحديث آخر نطلبه بعد أن رفضت حدوسنا ما قيل من قِبل متكلم ما، وهنا يكون الصمت حقيقيًّا لا تكلّف فيه ولا خوف ولا رضوخ وإنّما هو من باب الاختيار المقصود من قبل المتكلم.

3- الصمت وآفاق التحليل: مظاهر عرفانيّة.

إنّ البحث في الصمت باعتباره نسقاً خفيًّا في الخطاب فتح لنا الأبواب للولوج إلى عمقه وتبيّن دلالته التّداوليّة ضمن التواصل، فالصمت غدا البديل الأفضل عن الكلام في كثير من المقامات، وفي صورة أخرى مثّل الحلقة الأضعف في الإنسان التي تنحدر به إلى مصاف الحيوان غير القادر عن التّعبير إلاّ في حدود بعض الإيماءات والإشارات.

وقد كانت معاينتنا للصمت طيلة هذا المقال تقف عند حدود أبعاده الدّلالية دون أن تغوص في بعض مرجعياته ودون أن تقف عند منطلقاته والبيئة الثقافية التي ينبثق منها، ولهذا نأتي بهذا العنوان "الصمت وآفاق التحليل"، إشارة منّا إلى استئناف حوار الصمت والتفتيش عن عمقه الإدراكي الذي ينظمه، ويمكن أن يحاصره في فهم مبتغاه، وقد رأينا أنّ نجذّر ذلك ضمن مقاربة طريفة ودون أن يكون كلامنا عاماً حيث وجدنا في المنهج العرفاني ضالتنا بكوْنه يدفع بنا إلى البحث عن قضايا الصمت عرفانيا. فهل للصمت مظاهر عرفانية؟

قبل سبر أغوار الصمت عرفانيا نرى من الضروري الإشارة أن علم الدّلالة العرفاني sémantique cognitive يحاول في عمقه النّظريّ أن يؤسّس لكيفية فهمنا للعالم وكيفية اكتساب المعلومات وتوظيفها[20]، وبالتّالي فهو يحاول الإجابة عن كيفية تمثّلنا للأشياء ويعطينا إجابة عن مرجعياتها في الواقع. وإذا ما حاولنا تنزيل الصمت في هذا السياق فإنّنا قد نعثر عن تمظهرات للصمت، وقد نجد له في نظامنا التّصوريّ حضوراً بحيث نستعير صوره المتجسدة في العالم ونوظفها في سياقات عدّة.

في البدء نتساءل: أليس صمت الذات نابعاً من هدوء المكان وخشوع اللحظة؟ أليس هو عسعسة الليل؟ أليس صمتها صمت القبور وقداسة ما حولها؟

للإجابة عن هذه الأسئلة نعود بها إلى علم الدّلالة العرفاني الذي يقترح تصوراً عميقاً في كيفية تعامل الإنسان مع واقعه، فالإنسان ليس بمعزل عن انتظام الكون وفلسفته، ويأتي صمته في هذه الحالة انبثاقاً من واقع الأشياء التي حوله، فركون الذات إلى الصمت هو في الحقيقة تعبير عن صفاء الذّهن أمام ضجة الكلام وثرثرته، فالإنسان يحتاج في لحظات إلى أن يصمت عندما يكثر اللغو من حوله، ويستمد عمق صمته ذاك من الطبيعة من حوله، فالصحراء إذ تصمت فإنّها تعكس خلوها من الناس وأصواتهم.

إنّ ذهن الإنسان يستوعب مظاهر الصمت من حوله فيحاول دائما أن يستنجد بها في كثير من المواضع، فيتحول صمت الإنسان إلى حكمة أحياناً يجد لها في واقع الحال ما يبررها، فنحن حين نصمتُ في المساجد نعبّر فلسفة الإصغاء واحتماء تحت مظلة وقارِ المحدّث، يقول محمد الشيباني: « وقد يقتضي الإنصات اهتماما أو متابعة- طوعا أو كرها- عند إلقاء الخطب هنا وهناك أن نلوذ بالصمت لفترات طويلة»[21]، وفي هذا الإطار نعثرُ ضمن خُطب الجمعة على فلسفة الصمت ضمن تقاليدنا، فالصمت في صلاة الجمعة وعند الاستماع للخطبة هو قانون مقدّس، يعاقب من يخرقه بإلغاء جمعته "فمنْ لغا فلاَ جمعة له" وبعيداً عن صحّة الحديث من عدمه، فإنّ للصمت مرجعية في الواقع تلتقطها أذهان الناس وتستعملها في مواقف أخرى.

ونجد للصمت مرجعيات عرفانيّة تتفق فيها إدراكات الناس ضمن ما يحفُّ بمراسم الجنازة والدفن من خشوع، فنجد الجميع يتفق في ضرورة التزام الصمت عند زيارة القبور، فنحن في حضرة المكان بكل مقوماته العرفانية، وبهذا فإنّ الإنسان حين يصمتُ فإنّما يعبّر أحيانا عن ترفع في الحديث في حضرة المقام. وقد نصمت عند سماع الأغاني استمتاعاً فنماهي بذلك فلسفة الرومنطيقي حين يختار الطبيعة وهدوء البحر، وقد نصمت خوفاً وجزعا أمام سطوة الأب أو المعلّم...إلخ.

إنّ الصمت ضمن هذا السياق العرفانيّ قد يتّسع إلى ما لانهاية ،وهذا ما يجعلنا نطرحه في آفاق التحليل، ولا بدّ أن نشير أنّ قضاياه العرفانية مهمّة وتستحق التّحليل، ذلك أنّنا لم نقف على كامل تمظهراته وإنّما أردناها إشارات تعزز البحث في الصمت ودلالاته.

لم يبق لنا في نهاية هذا المطاف إلاّ أن نقول إنّ:

-/ الصمت نسقٌ خفيٌّ في الخطاب لا نراه ولكنه حاضر، فهو الذات المقابلة التي تصمت لتقول، وبصمتها تبلّغ ما تكتنز به النّفس من مشاعر وأحاسيس.

-/ الصمت له دلالات عدّة، فنرى الصّامت بليغاً حينا عاجزاً حينا آخر، نراه حراً مريدا حينا مكرها حينا آخر، ولهذا فإنّ الصمت وإن كان في حالات إيجابيا فإنّ له بعض مظاهر السلبية.

-/ الصمت معطى تداوليّ يدخل في لحظة التخاطب بما هو نقيض الكلام ليوجّه الدّلالة بحسب سياق الحال.

-/ الصمت معطى عرفانيّ نجد له في الإدراك الإنساني مرجعيات تؤلفه، فليس الصمت ظاهرة نكرة في حياة الإنسان وإنّما هو معطى موجود في واقع الأشياء من حولنا.

-الهوامش:

[1] لسان العرب المحيط، للعلامة ابن منظور، قدّم له الشيخ عبد الله العلايلي، أعاد بناءه على الحرف الأوّل من الكلمة يوسف الخياط، دار الجيل بيروت، المجلد الثالث مادة (ص.م.ت)، ص 471-472.

[2] هذا المثل صغناه بتحوير من عندنا، وهو عندنا في تونس يعكس المقولة الشعبية "المعى ما يقربعش" أي أنّ الرجل الذي يحدث الضجة فارغ في أصله من المعنى وثرثرته ليس إلا دليلا عن هذا الفراغ، وهذا يذكرنا بطرح قديم مفاده: "من علا صوته ضعفت حجته".

[3] عبدالله البهلول، الصمت سياسة في القول، ضمن أعمال ندوة علميّة "كتاب في الصمت"، 5-6-7 أفريل 2007، أشرف على جمعه وقدّمه محمد الشيباني، منشورات جامعة صفاقس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، وحدة تحليل الخطاب، 2008، ص 83.

[4] نعثر في المتون النحويّة والبلاغية القديمة على هذا المصطلح "شجاعة العربية" وهو مصطلح خاص بابن الجني في كتابه الخصائص وضمنه أدرج الحذف باعتباره صورة من صور شجاعة العربية لما فيه من قدرة بلاغية. (انظر الخصائص، ج2، ص 360).

[5] يمكن أن تراجع في هذا البيان والتبيين للجاحظ حيث يعتبر الإيجاز طريقا من طُرق البلاغة في القول، من بين ذلك هذا الحديث،يقول: « قال معاوية: ما تعدّون البلاغة فيكم؟ قال: الإيجاز، قال له معاوية: وما الإيجاز؟ قال صحار: أن تجيب فلا تبطئ، وتقول فلا تخطئ، فقال له معاوية: أو كذلك تقول يا صحار؟ قال صحار: أقلني يا أمير المؤمنين، ألا تبطئ ولا تخطئ»، وللجاحظ إشارات واضحة ترجم اعتبار البلاغة هي الإيجاز في القول يقول: «(...) حدثني صديق لي قال: قلت للعتابي: ما البلاغة؟ قال: كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حسبة ولا استعانة فهو بليغ...» (البيان والتبيين، ج1، ص 96).

[6] أحمد الجوة، الصمت أنواعه ووظائفه في الشعر العربيّ الحديث، ضمن أعمال ندوة علميّة "كتاب في الصمت"، 5-6-7 أفريل 2007، أشرف على جمعه وقدّمه محمد الشيباني، منشورات جامعة صفاقس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، وحدة تحليل الخطاب، 2008، ص31.

[7] الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 194.

[8] المرجع نفسه، ج1، ص 4.

[9] المرجع نفسه، ج1، ص 114.

[10] الوقوف عند تعريف واضح للتداولية ليس بالأمر السهل ذلك أنّ هذا المنهج ينهل من علوم معرفية عديدة ولهذا فإنّ وقفنا عند تعريف ماري دير و فرنسوا ريكاناتي.(انظر المقاربة التداولية، فرانسواز أرمينكو، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، مقدمة المؤلف)

[11] **عبد الله البهلول، الصمت سياسة في القول،** ضمن أعمال ندوة علميّة "كتاب في الصمت"، 5-6-7 أفريل 2007، أشرف على جمعه وقدّمه محمد الشيباني، منشورات جامعة صفاقس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، وحدة تحليل الخطاب، 2008، ص 83.

[12] (.....) هذا الترميز نقصد به الصمت.

[13] أحمد الجوة، الصمت أنواعه ووظائفه في الشعر العربي الحديث، ص 26.

[14] جميل حمداوي، سيميولوجيا التواصل وسيميولوجيا الدّلالة، ضمن التواصل نظريات

وتطبيقات، الكتاب الثالث، إشراف محمد عابد الجابري، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، الطبعة الأولى بيروت 2010، ص 58.

[15] يذكرنا هذا بما تقترحه أوركيوني في فهم الخطاب باعتبارها ترى وجود جملة من الافتراضات و الأساسيات الضمنية في فهم فحوى الخطاب والتي تتوزع على جملة من الكفاءات اللسانية.(**Orecchioni kerbrat, l'implicite, Paris, Armand colin,** 1986, p250.).

[16] استعمال اللغة بعلاماتها لصالح المنفعة الخاصة مبحث وقع طرحه في إطار علم التواصل الاجتماعي، وتحديدا ضمن اعتبارات النفعية للغة.(**Eric Maigret, Sociologie de la communication et des médias, chapitre 8, de la sémiologie a' la pragmatique, p 113**).

[17] محمد العامري، ضمن مقال بعنوان: ما هو الفخ الذي يقع فيه أغلب المقنعين؟

[18] أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة، كيف ننجز الأشياء بالكلمات، ترجمة عبد القادر قينيني، إفريقيا الشرق، 1991، ص 17، انظر أيضا **j.l. Austin, Quand dire c'est faire,1970, p 143.)** (

[19] تدخل رمزية الصمت ضمن الحقل الاجتماعي والثقافي لتتحوّل إل دال معين يتخذ بعدا أحاديا ضمن ثقافة معينة من مثل تعبير الصمت عن رغبة في الرضاء، وهذا نجد له أبعادا سوسيولوجية عدّة. (ينظر على سبيل المثال:

Gilles Amado, Anderé Guittet, Dynamique des communctions dans les groupes, Armand Colin/Vuef, 2003, p33)

[20] محمد الصالح البوعمراني، دراسات نظرية وتطبيقية في علم الدلالة العرفاني، مكتبة علاء الدين صفاقس، الطبعة الأولى، 2009، ص7.

[21] **محمد الشيباني، الصمت وتأويله**، ضمن أعمال ندوة علميّة "كتاب في الصمت"، 5-6-7 أفريل 2007، أشرف على جمعه وقدّمه محمد الشيباني، منشورات جامعة صفاقس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، وحدة تحليل الخطاب، 2008، ص111.

المصادر والمراجع :

- ابن جني(أبو الفتح عثمان)، الخصائص، د.ت،تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية، دار الكتب المصرية.
- ابن منظور، (أبو الفضل جمال الدّين)، قدّم له الشيخ عبد الله العلايلي، أعاد بناءه على الحرف الأوّل من الكلمة يوسف الخياط، دار الجيل بيروت،1988.
- أرمينكو (فرانسوا)، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي. 1987.
- الهلول، (عبد الله)، الصمت سياسة في القول، ضمن أعمال ندوة علميّة "كتاب في الصمت"، 5-6-7 أفريل 2007، أشرف على جمعه وقدّمه محمد الشيباني، منشورات جامعة صفاقس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، وحدة تحليل الخطاب، الطبعة الأولى الثلاثية الرابعة، 2008.العامري، (محمد)، ضمن مقال بعنوان: ما هو الفخ الذي يقع فيه أغلب المقنعين؟
- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)، *البيان والتبيين*، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، الطبعة السابعة، 1998.
- الجوة، (أحمد)،الصمت أنواعه ووظائفه في الشعر العربي الحديث، ضمن أعمال ندوة علميّة "كتاب في الصمت"، 5-6-7 أفريل 2007، أشرف

على جمعه وقدّمه محمد الشيباني، منشورات جامعة صفاقس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، وحدة تحليل الخطاب، الطبعة الأولى الثلاثية الرابعة، 2008.

- الشيباني (محمد)، الصمت تأويله، ضمن أعمال ندوة علميّة "كتاب في الصمت"، 5-6-7 أفريل 2007، أشرف على جمعه وقدّمه محمد الشيباني، منشورات جامعة صفاقس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، وحدة تحليل الخطاب، الطبعة الأولى الثلاثية الرابعة، 2008.
- العامري (محمد)، ما هو الفخّ الذي يقع فيه أغلب المقنعين، مقال منشور في مجلة شؤون عمانية الإلكترونية، بتاريخ 8 أكتوبر 2017، رابط: https; //shuoon.om/ p=3632.
- أوستين(جون) نظرية أفعال الكلام العامة، كيف ننجز الأشياء بالكلمات، ترجمة عبد القادر قينيني، إفريقيا الشرق، 1991.
- حمداوي (جميل) ، سيميولوجيا التواصل وسيميولوجيا الدّلالة، ضمن التواصل نظريات وتطبيقات، الكتاب الثالث، إشراف محمد عابد الجابري، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، الطبعة الأولى بيروت 2010.

- Amado Gilles, Guittet Anderé, Dynamique des communctions dans les groupes, Armand Colin/Vuef, 2003.

- Austin, JL Quand dire c'est faire,Paris, Seuil, 1970.

- -Kerbrat (Orecchioni), L'implicite, Armand colin, Paris 1998

- Maigret, Eric , Sociologie de la communication et des médias, Armand Colin/Vuef, paris, 2003.